With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"فَيِجاش" هو النصّ الأسبوعي الحادي عشر من كتاب "بريشِيت" (سِفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية الثامنة عشرة من المَقطع الرابع والأربعين وينتهي بالآية السابعة والعشرين من المقطع السابع والأربعين.

القَائِدُ الذِي لَمْ يَتَوقَّعْ أَحَدٌ أَنْ يُصْبِحَ قَائِدًا

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

لقد كنتُ حاضرًا ذات مرّة حين سُئل المؤرّخ والباحث الكبير في شؤون الإسلام، برنارد لويس، عن توقّعاته لمستقبل الشرق الأوسط. فأجاب بسُخريةٍ لاذعة: "أنا مؤرّخٌ، لذا لا أُقدِّم تنبؤات إلا عن الماضي، بل إنَّي مؤرّخٌ متقاعد، فحتّى ماضِيَّ كمؤرِّخ أصبح من الماضي". إن التنبؤات المستقبليّة مستحيلة في شؤون البشر الأحياء الذين يتنفّسون وتتقلّب أحوالهم باستمرار، لأنّ الإنسان حرّ، ولا سبيل لأن نعرف مسبقًا كيف سيتصرّف إزاء التحدّياتِ الكبرى في حياتِه: إن كان سيتحطّم تحتَ الضغط، أم سينهض ليصبح قائدًا.

ومع ذلك، فإنّ أكثر ما يبدو واضحًا في الثلث الأخير من سفر التكوين، هو أنّ يوسف سيتحوّل إلى النموذج المثاليّ للقائد، إذ إنّه الشخصيةُ المحوريّة في القصة، وأحلامُه، والتحوّلاتُ التي عصفت بمصيرِه، كلّها تُشير إلى هذا الاتّجاه. في المقابل، إنّ آخر شخصٍ نتوقّع أن يكون قائدًا، هو يهوده/يَهوذا، الذي اقترحَ بيعَ يوسف عبدًا، كما ورد في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من المَقطع السابع والثلاثين من سفر التكوين. ثمّ نرى يهوده بعد ذلك منفصلًا عن إخوته، يعيشُ بين الكنعانيين، فيتزوّج من نسائهم، ويفقِدُ اثنين من أولاده بسبب ذنوبهما، ثمّ يضطجع مع امرأةٍ ظنّها بغيًّا، وهي في الحقيقة أرملة ابنه، تَمار، التي تنكّرت في زيِّ بغيٍ لتأخذ منه حقّها بعد أن حرَمها الزواج من ابنه الثالث.

وقد ورد في الآية الأولى من المَقطع الثامن والثلاثين من سفر التكوين: "وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَيْضًا، أَنَّ يَهُودَه هَبَطَ – فَيِيرِد – عَنْ إِخْوَتِهِ، فَمَالَ إِلَى رَجُلٍ عَدُلَّمِيٍّ اِسْمُهُ حِيرَه". وقد ورد الفعل العبري "فَيِيرِد" في النصّ الأصلي، ويعني "نزل" أو "هبط"، أي أن يهوده انفصل مكانيًا عن إخوته. غير أنّ المفسّرين اليهود رأوا في هذا الهبوط رمزًا لانحدارٍ أخلاقيٍّ، ففسّروا فعل "الهبوط" هنا بأنه إشارة إلى انحطاط في المكانة الروحية والأخلاقية، لا مجرّد حركة في المكان.

لكنّ التاريخَ سار على نحو مختلف.

فذُرّيّة يوسف، أي أَفْرَايم/أفرام ومنشّيه/منسى، اختفوا من صفحات التاريخ بعد الغزو الآشوري سنة 722 قبل الميلاد. أمّا نسلُ يهوده، بدءًا بالملك دافيد/داوود، فقد صاروا ملوكًا. وقد نجا سبط يهوده بعد خراب الهيكل والنفي البابليّ، وصار اسمنا نحنُ الشعبَ اليهوديّ مشتقًّا من اسمه. فنحنُ اليهود، "يِهوديم" باللغة العبرية، أبناءُ يهوده، وهذا النصّ الأسبوعي، "فَيِچاش"، يُظهرُ لنا المعنى العميق لذلك الانتماء.

لقد بدأنا بالفعل نلمحُ بوادر القيادة عند يهوده، منذ النصّ الأسبوعيّ السابق، حين وصلت العائلة إلى طريقٍ مسدود، حيث كانوا بحاجة ماسّة إلى الطعام، لكنّ نائب فرعون، الذي لم يعرفوا بعدُ أنّه يوسف، حذّرهم ألّا يقتربوا من مصر ما لم يُحضروا معهم أخاهم الأصغر بنيامين، وهو ما رفضه يعقوف/يعقوب بشدّة، إذ كان قد فقد يوسف، ابن زوجته الحبيبة راحيل، ولم يكن مستعدًّا لأن يُخاطر بابنه الثاني منها وهو بنيامين. وفي محاولةٍ لإقناع يعقوف بإرسال بنيامين معهم، تقدّم رَؤُوفين/روبِن، الأخ الأكبر، باقتراحٍ طائش، ينسجم مع شخصيته المترددة وغير المستقرة، كما ورد في الآية السابعة والثلاثين من المَقطع الثاني والأربعين من سفر التكوين: "فَقالَ لَهُ رَؤُوفِينُ، تَتَشَكَّلُ (اقتُلْ) ابْنَيَّ، إِنْ لَمْ أَجِبْهُ إِلَيْكَ، أَعْطِينِهِ، وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ". في المقابل، تكلَّمَ يهوده بهدوءٍ وثقة، ودونَ تهوّر، فقال، كما ورد في الآية التاسعة من المَقطع الثالث والأربعين من سفر التكوين: "أَنَا أَضْمَنُهُ، مِنْ يَدِي تَطْلُبُهُ، إِنْ لَمْ آتِ بِهِ إِلَيْكَ وَأَضَعْهُ بَيْنَ يَدَيْكَ، كُنْتُ خَاطِئًا لَكَ طُولَ الزَّمَانِ". وبهذه الكلمات، أقنعَ أباه يعقوف بأن يترك أخاه بنيامين يذهب معهم.

ما إن وصلوا إلى مِصر، حتّى تحقّق أسوأُ كوابيسهم، فقد وُجِدَتْ كأسُ الفضة الخاصّة بنائب فرعون في حوزة بنيامين، فأصدر نائبُ فرعون حكمَه: سيُؤخَذُ الغلامُ عبدًا في مِصر، بينما يُمكنُ لإخوته أن يعودوا إلى وطنهم أحرارًا. وهنا، يتقدّم يهوده إلى الأمام، ويلقي خطابًا يُغيّر مجرى التاريخ. فيتحدّث ببلاغةٍ عن حُزن أبيه يعقوف على فقدان أحدِ ابني راحيل. ويُضيف يهوده: إن فَقَدَ ابنه الآخر، فسيموتُ من فرط الحزن. ويؤكّد يهوده على أنّه هو مَن ضمِن عودةَ بنيامين سالِمًا، ثمّ يختم خطابه بهذه الكلمات التي وردت في الآيتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين من المَقطع الرابع والأربعين من سفر التكوين: "وَالْآنَ، يَجْلِسُ عَبْدُكَ مَكَانَ الْغُلَامِ، عَبْدًا لِسَيِّدِي، وَيَصْعَدُ الْغُلَامُ مَعَ إِخْوَتِهِ: أَنَا أُفَكِّرُ كَيْفَ أَصْعَدُ إِلَى أَبِي، وَالْغُلَامُ لَيْسَ هُوَ مَعِي، كَيْ لَا أَشْهَدَ الْبَلَاءَ، الَّذِي يَنَالُهُ".

وما إن فرغَ يهوده من هذه الكلمات، حتّى غمَرَت المشاعر يوسف، فانهارَ من البكاء، وكشفَ عن هويّته لإخوته. وهكذا بلغتِ الدراما الكبرى نهايتَها الحاسمة. فماذا كانَ يحدثُ هنا؟ وما علاقةُ ذلك بفهمنا للقيادة؟

لقد عبّر الحكماء اليهود عن مبدأ روحيّ عظيم حين قالوا: "في المكانِ الذي يقفُ فيه أهلُ التوبة، حتى الكاملون في الصلاحِ لا يستطيعون الوقوف" (باب "براخوت"/البركات 34 ب). والمقصود بهذه المقولة التلموديّة هو أنّ مقام الإنسان الذي أذنبَ ثمّ تابَ بصدقٍ وتغيّرتْ أفعاله نحو الأفضل، قد يبلغُ منزلةً روحيّة لا يبلغُها ذاك الذي لم يذنب قط. إذ تُمجّدُ هذه المقولة الشجاعة الداخليّة للعودة والإنابة إلى الله، في مقابل البراءة المستمرّة التي لم تُختبَر قط بالذنب. وقد استشهدَ التلمود على هذا المعنى بمقطعٍ من سفر إشعياء، حيث يقول الله عزّ وجلّ: "سَلاَمٌ سَلاَمٌ لِلْبَعِيدِ وَلِلْقَرِيبِ"، حيث يُذكَرُ "البعيد" أوّلًا، في إشارةٍ إلى التائب، قبل "القريب" أي البارّ بطبعه. ومع ذلك، يكاد يكون من المؤكّد أنّ المصدرَ الحقيقيّ والأعمقَ لهذا المبدأ يكمن في هذه القصة بالذات، التي تروي تفاصيل اللقاء بين يوسف ويهوده.

ويُعرَفُ يوسف في التقليد اليهودي باسم الـ"تسَديك"، أي الصالح الكامل في عفّته واستقامته.[1] أمّا يهوده، فهو، كما سنرى، التائبُ الذي اقترفَ الذنب، حيث تراجع عنه والتزم فعل الخير. وقد أصبح يوسف نائبًا للملك، أمّا يهوده، فمن سِبْطِه جاء الملوك. وهكذا، تفوَّقَ التائبُ على الـ"تسَديك"، لأنّ التوبة، في جوهرها، أعظم من الصلاحِ الذي لم يُختبَر.

1. Tanĥuma (Buber), Noaĥ, 4, s.v. eleh, on the basis of Amos 2:6, “They sold the righteous for silver.”

لقد كان يهوده أوّلَ من حقّق التوبةَ الكاملة في التوراة، أي "تْشوفاه غموراه" باللغة العبرية، التي وضّح الحكماء أنها تتحقّق حين يواجهَ المرءُ الظروفَ نفسها التي أذنبَ فيها سابقًا، لكنّه لا يعودُ إلى الذنب، لا خوفًا ولا خجلًا، بل لأنّه صار إنسانًا آخر تغيّر إلى الأفضل.[2] وكان هو مَن اقترحَ بيعَ يوسف عبدًا، قبل سنوات طويلة، كما ورد في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من المَقطع السابع والثلاثين من سفر التكوين: "فَقالَ يَهُودَه لِإِخْوَتِهِ، مَا الطَّمَعُ، فِي أَنْ نَقْتُلَ أَخَانَا، وَنُغَطِّيَ دَمَهُ؟ تَعَالَوْا نَبِيعُهُ لِلأَعْرَابِ، وَيَدُنَا لَا تَبْطُشُ فِيهِ، لِأَنَّهُ أَخُونَا كَلَحْمِنَا، فَقَبِلَ مِنْهُ إِخْوَتُهُ".

والآن، وبعد كلّ هذه السنوات، يَجِدُ يهوده نفسه في موقفٍ مُماثل تمامًا، إذ إنّ أخاه الصغير قد حُكِمَ عليه بالعبوديّة، وقد سُمِحَ له ولإخوته بالنجاة إن هم تخلّوا عن أخيهم. لكنّ يهوده يرفض الهروب، بل يواجه الموقف بشجاعةٍ قائلًا: "يَجْلِسُ عَبْدُكَ مَكَانَ الْغُلَامِ"، كما ورد في الآية الثالثة والثلاثين من المقطع الرابع والأربعين من سفر التكوين. وهذه هي التوبةُ الكاملة، وذلك هو التغيّرُ الجذريّ الذي أصاب نفس يهوده، فاهتزّ لأجله قلب يوسف، وكشف عن هويته لإخوته وسامحهم.

وقد لمّحَت التوراة إلى تغيّر شخصيّة يهوده في حادثةٍ أخرى مؤثّرة: فحين اتّهَمَ كنّتهُ تَمار بالزنا، بعد وفاة زوجها، أظهرت له أغراضه الشخصية، وهي خاتمه وقِطعة من ثيابه وعصاه، التي أعطاها إياها كرهنٍ، حين تنكّرت في زيِّ بغيٍ، قبل أن يضطجع معها، وكان إظهار تلك الأشياء دليلًا على أنّه والد الطفل في بطنها، فاعترفَ على الفور، قائلًا: "هِيَ أَبَرُّ مِنِّي"، كما ورد في الآية السادسة والعشرين من المَقطع الثامن والثلاثين من سفر التكوين.

لقد كانت هذه هي المرّةُ الأولى في التوراة التي يعترفُ فيها أحدٌ بخطئه. وإذا كان يهوده هو أوّلَ تائب، فإنّ تمار، تلك الأرملة الصامتة، المهمَّشة، أمّ پيريتس الذي ينحدر منه الملك داڤيد، هي التي جعلت التوبة ممكنة.

ربّما كانَ مستقبلُ يهوده كامِنًا في اسمه منذ البداية. فالفعلُ العبريّ "لِهودوت" يعني "أن يشكر"، وقد سمّتْ ليئاه/ليئة ابنها الرابع يهوده بعد ولادته، وقالت، كما ورد في الآية الخامسة والثلاثين من المَقطع التاسع والعشرين من سفر التكوين: "هَذِهِ الْمَرَّةُ أَشْكُرُ – 'أوديه' – الله"، ثمّ تَقولُ الآية: "لِذَلِكَ أَسْمَتْهُ يَهُودَه". لكنّ الجذرَ ذاته يرتبطُ بالفعل العبري لِهيتڤادوت، أي: "أن يعترف" أو "يُقرّ"، والاعتراف بالذنب هو ما اعتبره الحاخام موشيه/موسى بن ميمون، المُلقَّب بـ"رَمبام"، جوهرَ وصيّة التوبة.

إنّ القادة ليسوا معصومين عن ارتكاب الأخطاء، فهي جزءٌ من طبيعة الدور القياديّ. فالمُديرون يلتزمون باتباع القواعد، أمّا القادة، فكثيرًا ما يجدون أنفسهم في مواقف لا تُحدّدها أيّ قواعد. وقد يجد القادة أنفسهم مضطرين إلى الإجابة عن أسئلةٍ صعبة، مثل: هل نُعلِنُ الحرب مع ما تحمله من موت ودمار؟ أم نتجنّبها، مخاطرين بأن يُصبِحَ عدوّنا أقوى، ما سُيكلّفنا لاحقًا أعدادًا أكبر من الضحايا؟ وهذا هو المأزق الذي واجههُ ناڤيل تشامبرلين، رئيس الوزراء البريطاني عام 1939، حين اختارَ استرضاء ألمانيا النازية، ولم يدرك الناس خطأه إلّا لاحقًا، حين ظهر أنّ ونستون تشرشل كان على صواب.

لكنّ القادة ليسوا ملائكة، فهم بشرٌ يرتكبون أخطاء لا علاقة لها بالقرارات القياديّة، بل بالرغبات البشريّة والضعف الإنسانيّ. فلم يكن سلوك الرئيسين الأمريكيين جون ف.كينيدي وبيل كلينتون مُشرِّفًا في حياتهما الجنسيّة. فهل ينبغي أن يؤثّر هذا في تقييمنا لهما كقادة؟ وتقترح الديانة اليهودية أنّه يجب أن يؤثّر. ففي التناخ، لم يُجامِل النبيّ ناتان/ناثان الملكَ داڤيد حين أخطأ مع امرأة رجلٍ آخر، فواجهه بلا تردّدٍ بالحقّ.

---

2. Mishneh Torah, Hilkhot Teshuva 2:1.

تشير التوراة إلى أنّ ما يهمّ حقًّا، ليس الكمال، بل التوبة الصادقة التي تتحقّق حين يُدرِكُ الإنسان خطأه، ويعترف به، ويتغيّر بسببه. وكما يوضّح الحاخام سولوفيتشيك، فإنّ أولَ ملكين لبني يسرائيل، وهما شاؤول/شاول وداڤيد، قد أخطئا فوبّخ نبيٌّ كِلَيْهما. وقد قال كلاهما أيضًا الكلمة العبريّة "حَطاتي" التي تعني: "لقد أخطأتُ"، كما ورد في الآية الرابعة والعشرين من المَقطع الخامس عشر من سفر صموئيل الأول، والآية الثالثة عشرة من المَقطع الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني. لكنّ مصيرَيهما كانا على طرفي نقيض: فقد خسر شاؤولُ عرشَه، بينما ظلّ داڤيد ملكًا. ويرى الحاخام سولوفيتشيك أنّ السبب في اختلاف مصيرَيهما هو أنّ داڤيد اعترفَ بخطئه فورًا، بينما ماطلَ شاؤول، وراح يختلق الأعذار ملقيًا باللوم على الآخرين، قبل أن يُقِرّ بذنبه متأخّرًا.[3]

تُعلّمنا قصّةَ يهوده وداڤيد الذي ينحدر من نسله، أنّ ما يُميّز القائدَ ليس كمالُه الأخلاقي، بل قدرتُه على الاعترافِ بالخطأ، والتعلّم منه، والنموّ بعده. إنّ يهوده الذي نتعرّف عليه في بداية القصّة، ليس هو الرجلُ ذاته في نهايتِها، وكذلك هو الحال مع نبيِّ الله ورسوله موشيه/موسى، فالرجل الذي كان متردّدًا ومتلعثمًا قرب العليقة المُشتعلة (الكلمة المذكورة في التوراة لوصف هذه المعجزة هي "سْنِه")، لم يبقَ على حاله، بل أصبح في نهاية حياته بطلًا عظيمًا، تصفه التوراة في الآية السابعة من المَقطع الرابع والثلاثين من سفر التثنية بهذه الكلمات: "وَكَانَ مُوشِيه ابْنَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً إِذْ مَاتَ، لَمْ تَدْمُسْ عَيْنُهُ وَلَمْ تَزُلْ رَطْبَتُهُ". إنّ القائدُ الحقيقيّ هو ذاك الذي، وإن تعثّر وسقط، فإنّه ينهضُ أكثر صدقًا وتواضعًا وشجاعةً ممّا كان عليه من قبل.

3. Joseph Soloveitchik, Kol Dodi Dofek: Listen – My Beloved Knocks (Jersey City, N.J.: Ktav, 2006), 26.

Arabic Translation *by The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion*